حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به ـ العدد التاسع ـ شوال ١٤٤٠هـ / حزيران ٢٠١٩م

باب الثعبان - مسجد الكوفة المعظم

٩

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد محمد مجيد الموسوي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

أهمية الكوفة والتأليف عنها

الأستاذ الدكتور محمد كريم إبراهيم الشمري
جامعة بابل

أهمية الكوفة:

تتضح لنا بجلاء أهمية مدينة الكوفة، ومكانتها ودورها في التاريخ والفكر العربي الإسلامي، وبذلك من خلال عدة عوامل وظروف ذات أهمية متميزة، ومن المعروف أن هذه المدينة كانت ثاني مصر -بعد البصرة- أسست خارج شبه الجزيرة العربية في الإسلام، في عهد الخليفة عمر بن الخطاب عام ١٧هـ/ ٦٣م، إذ كانت معسكراً للمقاتلين العرب، أسهمت إسهاماً فعالاً في حروب التحرير العربية الإسلامية، وخصوصاً في جبهة المشرق، ومثلما اتخذ المقاتلون المرافقون للقائد عتبة بن غزوان مدينة البصرة موطناً لهم ومهما كان عددهم، فإنهم كانوا جميعاً عرباً ينتمون إلى قبائل عربية مختلفة، كذلك اتخذ المقاتلون المرافقون للقائد سعد بن أبي وقاص مدينة الكوفة موطناً لهم، وظلت تلك السمة ملازمة لبنية المدينتين الاجتماعية، بعد استكمال التحرير ونشر الإسلام في العراق وما جاوره. وإذا قارننا بين أكبر مدينتين من معسكرات الإسلام في عهده الأول، وهما: البصرة والكوفة، وجدنا أن الكوفة أكثر عروبة من أختها البصرة، وأكثر منها تأثراً بالأوضاع السياسية لأنها ضمت عناصر اجتماعية أكثر عدداً إذ استقر فيها المحررون المنتصرون في معارك: القادسية والمدائن وجلولاء، أي أولئك الذين سارعوا إلى تلبية نداء الجهاد، من أهل اليمن والحجاز وسواد الفرات، وخلال الثلاثين سنة الأولى من الهجرة، كانت الكوفة هي المصر الذي لا تضاهيه مدينة أخرى، كانت قبة الإسلام ورأس (جمجمة) العرب، كانت جمجمة العرب حسب التعبير المنسوب إلى الخليفة عمر، الذي جعلها مركزاً لتنظيماته العسكرية والمالية، في حين أن البصرة لم تلعب دوراً مهماً إلا في خلافة عثمان بن عفان، وبدأت كذلك في منافسة الكوفة، بعد فتح خراسان من قبل رجالها، بسبب استئثارها بموارد المشرق، لتيسير ذلك الفتح.

أدى استقرار أول الجيوش المقاتلة في الكوفة -وكانوا في غالبيتهم من ربيعة واليمن- إلى انتشار الفعاليات الاجتماعية والثقافية وتطور سكانها الوافدين إليها، فأنجبت عدداً من المؤرخين والنسابة ورواد الفكر وآخرين من الأمصار العربية والإسلامية الأخرى، وذلك يعدُّ -بلا شك- دليلاً على الامتزاج الروحي والفكري الذي تكون بفضل الإسلام وتوحيده للمجتمع الجديد. كانت الكوفة والبصرة المصرين الوحيدين في العراق في ذلك الوقت، ومن الطبيعي جداً أن تقوم بينهما علاقات متينة ومستمرة بعد تمصيرهما، فكانت الأحداث التي تقع في الكوفة سرعان ما تجد صداها في البصرة، واتجه عدد من الكوفيين للاستقرار في البصرة، بسبب تدهور الأحوال السياسية من جهة، والرغبة في الكسب والربح من خلال الاشتغال في التجارة من جهة أخرى، واتخذ عدد من البصريين الكوفة مدينة ومقاماً لهم، لأنها أصبحت عاصمة الدولة العربية الإسلامية لمدة خمس سنوات، بعد انتقال الخليفة علي بن أبي طالب(عليه السلام) إليها من المدينة المنورة، واتخذت مركزاً للفقه والحديث واللغة وقراءة القرآن ورواية الشعر والأدب، وليس من المبالغة القول أن التاريخ العربي الإسلامي خلال القرن الأول الهجري السابع الميلادي هو تاريخ البصرة والكوفة، لما لعبا من أدوار سياسية وإدارية وعسكرية مهمة جداً، كما أنه ليس غريباً القول أن هذين المصرين اقتسما الحركة الفكرية العربية خلال ذلك القرن، بما أسهما به من مدارس نحوية وأدبية عرفت باسميهما.

وهما: مدرسة النحو البصرية ومدرسة النحو الكوفية، أصبحت البصرة أكثر هدوءاً من الكوفة وأوسع انفتاحاً للمؤثرات الخارجية، وكان لها في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي دور ثقافي مهم جداً، وفي الكوفة تركز الصراع بين القيم العربية الإسلامية والقيم الفارسية، منذ القرن الأول

الهجري، وكان من أبرز نتائج ذلك، ظهور تيارات فكرية واتجاهات عقلية متباينة لها آثارها المباشرة في حياة المسلمين، علماً أن البصرة سبقت الكوفة إلى الاستقرار والهدوء، وساعد ذلك أهلها على الاستقرار والهدوء، وساعد ذلك أهلها على الاشتغال بالعلوم، والاستفادة من الثقافات والعلوم المنقولة إليها مع العناصر الوافدة، من الفرس والهنود واليونان وغيرهم في بيئة مستقرة هادئة بدأت فيها بواكير العلوم.

تتضح لنا بجلاء أهمية كل من البصرة والكوفة في أمصارنا العربية والإسلامية القديمة التي أسسها العرب خارج شبه الجزيرة العربية، وقد ارتبطا ارتباطاً قوياً، بحيث صار يطلق عليهما من قبل المؤلفين العرب، اسم العراقين أو المصرين، فالعراقان هما: البصرة والكوفة، روى الرازي بخصوص العراقين ما نصه: «من العراق الكوفة والبصرة وبغداد، والذي يقول الناس العراقين، فالعراقان الكوفة والبصرة، واليمن تهامة»، وذكر المؤلفون ولاة كل منهما منفصلين، وأنهما كانا متمايزين، فذكروا ولاة خراج كل منهما، كما أشارت المصادر إلى وجود سوادين متمايزين، هما: سواد البصرة، وسواد الكوفة، لكل منهما ديوانه الخاص، أي: ديوان البصرة وديوان الكوفة.

عاشت الكوفة عصرها الذهبي خلال القرنين الأول والثاني الهجريين، اللذين كانا يمثلان مراحل النشأة والتطور والازدهار في تاريخ الحضارة الإسلامية في الكوفة، وهما اللذان شهدا أزهى مراحل حياتهما الأدبية والعقلية والفنية، لكن الكوفة واجهت تحدياً كبيراً بعد بناء مدينة واسط عام ٨١ - ٨٢هـ/ ٧٠٠- ٧٠١م في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، كما واجهت تحدياً أكثر تأثراً منذ منتصف القرن الثاني الهجري، متمثلاً ببناء مدينة بغداد وبروز دورها باتخاذها عاصمة للخلافة العباسية، في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور عام ١٤٩هـ/ ٧٦٦م، بعد انتهاء مرحلة البناء التي بدأت عام ١٤٥هـ/ ٧٦٢م، وكان أبرز نتائج ذلك اجتذاب العلماء والأدباء والمفكرين وأصحاب المهن والحرف والتجارة إليها، فاتسعت بنيتها السكانية على حساب المدن الأخرى، خصوصاً البصرة والكوفة، وكان ذلك التحدي التمدني مؤثراً بصورة واضحة بالنسبة إلى مدينة الكوفة، فقد انحل (تدهور) وضعها، وكان ذلك إذاناً بافول نجمها وضعف شأنها وبداية انحدارها، يتضح ذلك من وصف ابن حوقل للكوفة في منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، إذ قال: «والكوفة في هذا الوقت وأعمالها وسوادها مضافة إلى ضمان مدينة السلام، ومرفوعة أعمالها إلى دواوينها». لكن ذلك التأثير كان أقل وأخف وطأة على مدينة البصرة، بفضل العامل الاقتصادي، المتمثل بوظيفتها التجارية ودورها، إذ تحولت من مدينة إدارية وعسكرية إلى مدينة تجارية ومركز جذب ونشاط اقتصادي متطور. وعلى الرغم من كل تلك المؤثرات الكثيرة، حظيت مدينة الكوفة باهتمام العديد من المؤرخين والمؤلفين العرب والمسلمين خلال العصور الوسطى الإسلامية، فقد لعبت دوراً مهما جعلها تصبح عاصمة للخلافة طوال خمس سنوات في عهد الخليفة علي بن أبي طالب(عليه السلام)، ثم مركزا للتشيع ومركزاً لدراسة الفقه والنحو واللغة والفلسفة، كما كانت قاعدة حربية ترابط فيها الجيوش العربية المقاتلة في العراق.

التأليف عن الكوفة: تعد المؤلفات التي ألفت عن الكوفة ضمن كتب التواريخ المحلية، وكذلك كتب فضائل البلدان التي ألفت لإبراز فضائلها، وهي تمثل شكلاً غير متكامل لتاريخ محلي ديني، وكانت تلك الفضائل أو الخواص تقترن بذكر مدينة أو إقليم معين، فتذكر فضائل أهلها، وهي تشبه تماماً مقدمات التواريخ المحلية الدنيوية والدينية، وتجدر الإشارة هنا إلى أن من بين المؤلفات الخاصة عن مدينة الكوفة، مؤلفات حملت عناوين: الكوفة، فضائل الكوفة كما سنوضح.

تشكل التواريخ المحلية تطوراً مهماً في الكتابة التاريخية العربية، وتمثل انعكاساً لعدة منعطفات ومؤثرات شهدها المجتمع العربي، منها ما له علاقة ماسة بالموروثات العربية الحضارية،المتمثلة بدور المدن العربية، خصوصاً تلك التي لعبت دور: المدينة –الدولة، المدينة– الميناء، أو المركز التجاري أو المدينة الدينية، فضلاً عن الموروثات التي ظهرت على أثر الدعوة الإسلامية ولا نغفل تأثير عامل المنافسة الحضارية، الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لأهالي المدن والأمصار العربية الإسلامية، في إذكاء الحماس لتخليد المدن التي ينتمون إليها، وهو ما نسميه بـ «المواطنة المحلية»، وقد ألف العرب في هذا الموضوع كثيراً من المؤلفات، عن المدن العربية، العراقية والسورية والمصرية والمغربية، علل البروفيسور روزنثال نشأة التواريخ المحلية في الإسلام، بقوله: «ومع أن كثيراً من التواريخ المحلية في الإسلام نشأت من الاعتبارات الدينية والفقهية، غير أن المفاخر الإقليمية كانت وراء مباحث العلماء»، وفي اعتقادنا أن ما ذكره روزنثال بهذا الخصوص، من الأمور المبالغ فيها كثيراً ولا يمكن قبولها بسهولة، لأن هناك عدداً من المؤرخين كتبوا عن تواريخ مدن هي ليست أصلاً مدنهم ولا صلة لها بإقليمهم، ما يدحض تلك الدعوة الإقليمية المزعومة، وبالإمكان ذكر أمثلة كثيرة تؤكد أن عدداً من المؤرخين في العراق والحجاز ومصر وغيرها، ألفوا تواريخ مدن هي ليست مدنهم، ما يوضح بجلاء ابتعادهم عن تلك النظرة الإقليمية

المحدودة، ويؤكد وحدة العالم العربي الإسلامي بشكل جلي، والأمر هذا ذاته ينطبق بكل وضوح على المؤرخين والمؤلفين الذين ألفوا عدداً من الكتب والرسائل (الكتيبات) عن مدينة الكوفة، إذ كان بينهم من أهل الكوفة، فضلاً عن غيرهم من المدن والأمصار العربية الإسلامية الأخرى.

تعد حركات التحرير العربية الإسلامية في المشرق والمغرب، من المؤثرات الأخرى التي حفزت على الاهتمام بكتابة التواريخ المحلية ، فقد ألزمت تلك الحركات (حروب التحرير) المقاتلين العرب باتخاذ مراكز عسكرية، كانت في بادئ الأمر معسكرات لمرابطتهم مع عوائلهم خلال العمليات العسكرية الواسعة. وأكد رونثال أن أصول الكتابة التاريخية في التواريخ ترجع إلى العراق، فكانت بداية نشأتها في العراق وليس في سوريا. والواقع أن المتتبع لنشأة التواريخ المحلية في التاريخ العربي الإسلامي، يجد أدلة عديدة تؤكد غزارة التأليف في الكتابات التاريخية عن المدن والأمصار العراقية، مثل: البصرة والكوفة وواسط والموصل وبغداد، وكان لقدم بعض الأمصار العربية الإسلامية، خاصة البصرة والكوفة أثر واضح في تلك المؤلفات، فهما يعدان من أوائل الأمصار الإسلامية التي أسسها العرب خارج شبه الجزيرة العربية بعد ظهور الإسلام وقيام الدولة العربية الإسلامية، وكان للمقاتلين العرب فضل كبير في تأكيد أهميتهما؛ لأنهم وضعوا لبناتهما الأولى أثناء مشاركتهم في الحملات العسكرية من حركات التحرير العربية الإسلامية، وبذلك أصبحا تربة ثقافية صالحة لظهور البواكير الأولى للتواريخ المحلية، فألفت العديد من المؤلفات (كتب، رسائل، كتيبات) في أبراز فضائل كل منهما على الأخرى. وهكذا تتضح بجلاء عوامل وظروف عديدة أكدت بوضوح أهمية مدينة الكوفة ودورها في التاريخ العربي والإسلامي، منذ اختطاطها في خلافة عمر بن الخطاب من قبل القائد سعد بن أبي وقاص، واتخاذها فيما بعد عاصمة للخلافة العربية الإسلامية في عهد الخليفة علي بن أبي طالب(عليه السلام)، فضلاً عن العوامل الأخرى التي عرضناها آنفاً لتأكيد أهميتها، ما حدا بالمؤرخين والمؤلفين العرب والمسلمين أن يولوها أهمية خاصة، من خلال مؤلفاتهم عنها التي دونوا فيها تاريخها العام وتاريخها الخاص، بتخصيص مؤلفاتهم عن خططها وولاتها وقضاتها، وعلمائها، فضلاً عن مؤلفات خصصت لإبراز فضائلها وفضائل أهلها، ومفاخرة مدينتهم على المدن الأخرى، وهو ما سندرسه في بحثنا هذا.